الرحلة إلى الذات

(٣)

العيش في الزمان الصعب

بقلم

أ. د. عبد الكريم بكّار

دار القلم

دمشق

تاسعاً ـ جنون الاستهلاك :

لم يحدث في التاريخ أن نجح مجتمع بشري في تأمين حاجاته وكمالياته كما نجحت مجتمعات عصرنا الحاضر ؛ فالفتوحات العلمية والتقنية والاستغلالية لموارد البر والبحر ـ وغداً الجو ـ مكنت الإنسان من توفير سلع وخدمات، لو ذُكرت للناس قبل نصف قرن من الآن، لظنوها ضروباً من الوهم والخيال ! .

ونتيجة للإفلاس الروحي الذي لم يسبق له مثيل أيضاً، قام الناس بإحلال الشهوات وأصناف المتع محل السعادة القلبية والإشراق الروحي، فحينما شعر الإنسان باليتم العقدي والانتمائي، تحوَّل إلى مستهلك، وصار رفع مستوى المعيشة هدف الحياة الأكبر، كما صار التقدم الاقتصادي كبير أصنام العصر. حين تم اختزال التقدم العام ـ وهو بالطبع روحي ومادي ـ إلى النمو الاقتصادي وحده، أخذت أنشطة الحياة تتمحور بالتدرج حول هدف أعظم نهائي هو : مزيد من العمل من أجل مزيد من الإنتاج من أجل مزيد من الاستهلاك من أجل مزيد من المتعة ! .

لم يكن الاندفاع نحو الاستهلاك العظيم ناجماً عن التعويض عن انهيار المركز الروحي للإنسان الغربي فحسب، بل كان إلى جانب ذلك نتيجة ما تقضي به وتيرة النمو التي تخضع لها اقتصادات البلدان المتقدمة من ضرورة إيجاد احتياجات متجددة، وتنشيط الرغبة في تلبيتها، باستخدام الدعاية وفتح أسواق جديدة للتصدير، وخفض مدة صلاحية السلع. الدعاية في الأعمال التجارية، تؤدي دوراً مهماً اليوم في فتح شهية الاستهلاك والتبذير، وتبديد الموارد والثروات. وتذكر بعض الإحصاءات أن أمريكا أنفقت عام ١٩٩٦ نحواً من (٨٤) مليار دولار في الدعاية والإعلان عن السلع والخدمات. وهذا الرقم يكفي لإطعام عشرة من الشعوب التي تتضور جوعاً!. كما تذكر إحصاءات أخرى أن مجمل ما يتم إنفاقه على الدعاية الآن في العالم قد تجاوز (٣٥٠) مليار دولار سنوياً.

ويؤسفني القول : إن فن الدعاية لدينا، يسير باتجاه النمط الغربي، مع أنها تؤثر تأثيراً مباشراً في حجم الادخار الوطني في وقت نحن بأمس الحاجة فيه إلى

رؤوس أموال جديدة وجيدة من أجل توفير فرص عمل لملايين الشباب المسلمين العاطلين عن العمل.

قد كان الناس على مدار التاريخ ينتجون ما يحتاجون إلى استهلاكه، من أجل إبقاء مسيرة الحياة مستمرة، لكن الذي أحدثته الفلسفة الرأسمالية وأدبياتها، وطيوفها النفسية والفكرية، هو الرغبة في الاستهلاك من أجل الاستهلاك! وهذا أدى إلى تسارع نضوب موارد المعادن، والطاقة غير المتجددة، كما أدى إلى تلويث الهواء والماء، وتسخين حرارة الأرض؛ مما ينذر بأوخم العواقب. ولو قدر لسكان الهند والصين أن يسلكوا المسلك الاستهلاكي الذي يسلكه الغرب ـ ولا سيما أمريكا ـ لاختنق العالم في عشر سنوات!.

قد انتشرت بسبب التلوث الأمراض الخطيرة، وهناك بعض الأرقام المخيفة في هذا الشأن، فأمراض السرطان يعود ما بين (٨٠) إلى (٩٠٪) منها إلى تلوث البيئة، كما أن ارتفاعها يكاد يمضي على وتيرة ثابتة، هي في حدود (٣٪) سنوياً. سوف يطرح العالم قريباً في كل سنة ما يكفي لطمر عاصمة ـ مهما كانت كبيرة ـ بأكوام من الفضلات والمخلفات ـ وبعضها سام ـ سماكتها مئة متر!.

مما يؤسف له أن العالم الإسلامي يسير في الطريق عينه الذي تسير فيه الدول الصناعية من استهلاك وإسراف؛ بل إننا قد تجاوزنا نمط المعيشة الغربية في بعض الجوانب، مثل ما ينفق على الحفلات والمناسبات والولائم، ومثل ما يتم استهلاكه من قبل كثير من النساء على شراء الثياب، وعلى الحلي وأدوات الزينة...

لدينا الكثير من النصوص التي تدعو إلى ترشيد الإنفاق، والتنفير من الإسراف والتبذير، على نحو ما نجده في قوله ـ جل وعلا ـ: ﴿وَكُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟ وَلَا تُسْرِفُوٓا۟﴾ [الأعراف: ٣١]. وقوله ـ سبحانه ـ: ﴿إِنَّ ٱلْمُبَذِّرِينَ كَانُوٓا۟ إِخْوَٰنَ ٱلشَّيَٰطِينِ﴾ [الإسراء: ٢٧] بدافع حب التنعم، وبسبب من عدم الشعور بالمسؤولية، صار القليل من المسلمين من يتعظ بقوله ـ سبحانه ـ: ﴿ثُمَّ لَتُسْـَٔلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ ٱلنَّعِيمِ﴾ [التكاثر: ٨]. وصار كثير من الناس يحتج بـ ﴿وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ﴾ [الضحى: ١١].

ليس ثمة مسوغ مقبول لانجراف المسلم في التسابق على إرواء حاجات الجسد، ما دام يعتقد أن الآخرة، هي دار العيش الحقيقي، وما دام يعتقد أن الله ـ تعالى ـ سائله عما استخلفه فيه من مال، وما دام يعتقد أن حماية البيئة، والمحافظة على موارد الأرض مسؤولية من مسؤوليات المسلم. . . فهل نستطيع أن نخطو خطوة إلى الوراء على صعيد أنماط سلوكنا وعيشنا؛ كي نحفظ ما تبقى من طاقة الحياة، وكي نعطي العظة والقدوة لمن هم بحاجة إليها من الشعوب المترفة التي تبلّد لديها الحسّ تجاه مسؤولياتها الكونية؟. ونسأل الله المعونة والتوفيق.